(٢٠)

لبيك
على عرفات أنفسنا

حديث عيد الأضحى
١٠ ذو الحجة ١٣٨٠ هـ - ٢٤ مايو ١٩٦١ م

لبيـــك.

لبيـك الله.

لبيك اللهم لبيك.

لبيك أقرب إلينا من حبل الوريد.

لبيك يا من هو معنا أينما كنا.

لبيك يا من هو من ورائنا محيط.

لبيك يا من هو كل شيء وكل أشيائنا.

لبيك يا من هو كل معنى وكل معانينا.

لبيك يا من هو مشيئتنا وإرادتنا وحياتنا وقيامنا ووجودنا.

لبيك في دمائنا.. لبيك في عقولنا.. لبيك في أرواحنا..

لبيك في نفوسنا.. لبيك في معانينا..

لبيك مستويا على عرش أوانينا.

لبيك يا من هو قديمنا في أحسن تقويم.. لبيك يا من هو قابلنا في أحسن تقويم.. لبيك يا من هو أحسن تقويم.

لبيك يا من لا وجود مع وجوده ولا شهود مع شهوده.

لبيك لا إله غيرك ولا معبود سواك.

لبيك يا بارئ يا معيد، يا من بدأتنا فيما لا نعلم، وأوجدتنا فيما لا نعلم، وتعيدنا للوجود فيما لا نعلم.

لبيك يا من علمتنا كيف نعلم وكيف لا نعلم.

لبيك في علمنا.. لبيك في عمائنا وجهلنا.

لبيك في حياتنا أحياء ولا حياة لنا.

لبيك في معانينا من معانيك ولا معنى لنا.

لبيك في وجودنا من وجودك ولا وجود لنا.

لبيك أيها الحيـــاة.

عباد الله:

في مثل هذه الأيام من كل عام نأتي منسكا نسميه بالحج، ويقطع الزمان في حياتنا أياما، نسميها بالعيد، ونميز في جمعنا بين من حج وبين من لم يحج، ونتميز بوصف الحاج لمن حج.. فما هو الحج؟ وما هو العيد؟ وما هو العود؟

إن الحج في الدين إنما هو على ما يعرفه من عرف الدين ومن دخل الدين، ليس إلا توبة صادقة يتوبها المسيء - وكلنا هذا المسيء - توبة من أكبر الكبائر، هي أصل الكبائر تتساقط بجانبها وبالمقارنة لها كل الأخطاء، هي الشرك بالله، والقيام بالنفس، والعزلة بالأنا. فجعلت شعيرة الحج توبة صادقة من هذا الوزر ومن هذا الاعتقاد ومن هذا القيام، إذا ما أداها العبد، إذا ما أداها المسلم، إذا ما رجع بها المؤمن فارغا قلبه من كل ما سوى الله، وقد ذهب قاصدا بيت الله يطوفه ثم يدخله ويصبح من أهله، مرتحلا إلى مكان يقدسه لأن هذا المكان قدسه من قبله إمامه وأسوته وقدوته عبد الله ورسوله على سنن من سبق. وهو على نهجه يسير وبسنته يعمل.. يطوف كما طاف، ويُحَيِّي كما حيَّا ويجافي كما جافى، ويخلع لباس قيامه إلى لباس عزيمته، لا فرق بينه وبين الناس، مُحْرما عن رؤية أنانيته وعزلته إلى جديده من اندماجه ووحدته.. هو والناس كل لا يتجزأ.. هو والناس واحد لا يتفتت.. يلبون تلبية واحدة، ويقفون وقفة واحدة، ويقطعون يوما واحدا.. كلهم في بادية من صحراء.. على ربوة وهاوية.. يلتفون حول جبل يرون فيه عنوان الرحمة، وتحيطهم سلسلة من جبال يرون فيها عنوان الحماية والوقاية. يلبون من ناداهم إلى هذا المكان ليلقاهم في أنفسهم ولا مكان له.. صحراء جرداء إلا من رحمة الله.. تعنون التجرد من الدنيا وشهواتها، والبعد عن التعلق بقيمها وخيراتها، طلبا لمبدعها في جنته من

الأرض الطيبة، يذكر فيها اسمه، ولا يعرف فيها خير إلا خيره ولا ري إلا ريه، ولا يذكر فيها اسم إلا اسمه، ولا يعرف فيها معروف، إلا معروفه في نفس عبده.

إن الحج ليس أكثر من توبة صادقة لمن صدق في توبته، ليس أكثر من رجعة صادقة لمن رجع إلى ربه معه في نفسه، فإذا كان المصلي قد لا يزداد بصلاته من الله إلا بعدا وقد غيبه عنه وسوفه له، وإذا كان الصائم قد لا يناله من صيامه إلا الجوع والعطش إذ لم يهيئ بالصيام كشف معيته له، فكذلك الحاج قد لا يربح من إتيانه لهذا المنسك إلا المشقة والنصب وتمضية الوقت في التعب وإنفاق المال، واشغال البال، إذا لم يكن في هذا المنسك نزعة منه في التوبة إلى الله والرجعة إليه. وإن صدق الإنسان في توبته، وإن صدق في رجعته، حج ولو هو في عقر داره. فالحج إنما هو لمحة اليقظة.. إنه لمحة الضمير.. إنها لمحة الحياة يوم يرجع الإنسان صادقا إلى ربه مدركا له في معيته.

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، كل مولود يولد على الفطرة، وارتد الإنسان بفعله، وتحمَّل الله عنه فعله إلى أسفل سافلين.. ثم تهيأت له برحمة الله سبل التوبة والرجعة إلى الله، ليرجع بعمله، وبيقظته، وبتوبته، إلى أحسن تقويم عملا منه وعطاء من ربه غير ممنون.

فالإنسان بغفلته متأثرا ببيئته سقط إلى أسفل سافلين من أحسن تقويم. والإنسان بيقظته يرجع إلى طبيعته من أحسن تقويم. ولا يرجع الإنسان إلى أحسن تقويم أو يسير الإنسان في الواقع إلى أحسن تقويم، وهو يلتفت خلفه إلى قديمه.. إلى سقطته.. إلى كبوته، سواء من حيواته القديمة التي لا يدركها أو من أوقاته القديمة التي هو مدركها ولم يقطعها في يقظة وقطعته في غفلة.. فلينظر الإنسان أمامه دائما ولينظر إلى حاضره وغده، ولا يلتفت إلى أمسه إلا بما يقتضيه إدراك التجربة، ولا ييأس من رحمة الله، مما حصَّل من معاصيه وغفلاته من فعله بأمسه، من حاضر حياته أو قديم حيواته.. إن الله يعفو عن كثير، وإن الله يغفر الكثير، وإن الله لا يسأل عبده ما سأل العبد نفسه، ولا يذكره بماضيه من أخطائه ما كره العبد لماضيه بأخطائه.

إن وجود الإنسان على هذه الأرض، على ما سبق أن بدأه ربه في قديم من حيوات، إنما هو في ذاته توبة. إنه رجعة إلى الله، إنه حج مطهِّر كل مولود يولد على الفطرة، لا يسأل عن حيواته القديمة ولا يرتبط بها مهما كان بها من أخطاء أو سيئات. إنه ابن يومه في حياته الراهنة. الله مولاه والله قائم عليه بما كسب وبما يكتسب والله معه حيثما كان، والله من ورائه محيط.. فليقطع نفسه من شجرة ماضيه ما أدرك خطيئته، وليزرع نفسه في شجرة الحاضر ما رأى أرضها وعَرف زارعها.

إن الإنسان بإرادته وبأنفاسه كل يوم في لباس من خلق جديد ما جدد نفسه بتجديد فكره، وما أكبر ربه عما هو فيه وعما هو إليه وما وحد إلهه جامعا لهما، وما آمن بالله إيمانا بهما في معناه مولىً له يرعاه ولا ينساه.. فما عاد عبد لله مِن حجه إلا قبله الله لما صنع به الله وقد بدل سيئاته حسنات، وإن كانت أمثال الجبال.. من تاب تاب الله عليه. من استغفر غفر الله له. من رجع إلى الله وجد أحضان الله مفتحة له.

هذا هو العود إلى الله، وهذا هو العيد لمن أعاده إليه الله، وقد أعاده عقله وأعاده ضميره فعادت نفسه إلى الله.. فما أعاده في الواقع إلى الله غيره، وما عاد إلى الله بغير الله.. ومن عاد إلى الله فقد حج.

عباد الله:

لا تقنطوا أبدا من رحمة الله. واعلموا أنكم على أرضكم في بيت الله، وفي مسجد الله وفي حج إلى الله، ما ذكرتم الله في أنفسكم تضرعا وخيفة.. ألم يقل لكم رسوله من أنفسكم ومن أنتم على دينه: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)[1] ؟ ألم يقل لكم: (زويت لي الأرض)[2]؟ ألم يقل لكم: (تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)[3]؟

إنه عرف حكمة الله من خلقه للخلق، إنسًا وجِنًا، ما أوجدهم إلا ليعرفوه في أنفسهم ويمثلوه لأنفسهم، وعرف أنه بالغ فيهم أمره، وأنه جعل لكل شيء سببا، وأن رحمته غالبة عذابه، وأن رحمته هي التي تقوم في عبده وتتخلله، وأن العبد مهما عَلا فهو ضعيف، وأن العبد مهما ضعف فهو به قوي. إن الضعف إنما هو في العزلة عن الله حتى العدم، وإن القوة إنما هي في قيام وحدانية الله وعقيدة وحدانية الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، حتى وجه الله.

إن محمدا عبد الله ورسوله، به ومنه وفيه نعرف الدين، ونعرف اليقين، ونعرف أنفسنا، ونعرف الله. إنه وصلتنا بأنفسنا، وإنه وصلتنا بربه ربا لنا.. إذا لم تطف عقولنا حول اسمه ورسمه وبيته وكتابه ودعوته ومعناه وقيامه وغيبه وشهادته وقربه وبعده وحبه وبغضه، فلا دين لنا، ولا رب لنا، ولا إله لنا.

إن العودة إنما هي إليه عبدا لله.. وإن البدء إنما هو منه بعثا به حقا لله.. وإن الحب إنما هو له وجها لله.. وإن الرضا إنما هو عنه رحمة من الله.. وإن الوصلة إنما هي به، حقا من الله، فهل عرفناه على ما يليق بنا أن نعرفه أو على ما يليق به أن يُعرف؟

كيف يُعرف الله إذا لم يعرف عبده ورسوله؟ وكيف يقدر الله إذا لم يُقدر عبده ورسوله؟ وكيف يوصل الله إذا لم يوصل عبده ورسوله؟ وكيف يقوم الله إذا لم يقم عبده ورسوله؟

هل لنا عقول نفكر بها؟ هل لنا نفوس نحس بها؟ هل لنا قلوب نحن ونخشع بها؟ إن عقولنا عاطلة، ونفوسنا جذوتها خامدة، وقلوبنا أرضها هامدة، فكيف يكون لنا قيام بالله إذا لم يقم فينا ذكر له ونزوع إليه وتواصينا بذلك فيما بيننا؟ كيف يكون لنا ذلك ونحن نرى آباءنا قل منهم من كان كذلك وما زلنا على أثرهم؟ ونحن نرى جمعنا وأمتنا تستغرب ذلك، وتستبعد ذلك على ما كان عليه أصولها من جاهليتها؟ إن من استيقظ قلبه وجنانه من بيننا فقد استيقظ به أمة للحكمة، فليحرص على ذلك لنفسه وأثره، وليعلم أن ما أصابه من رحمة الله فيه الخير الكثير يعم البشرية، وينتشر فيها من روحه، فيبعث رفاتها ويحيي أمواتها، فليدأب على ما هو عليه، وليواصل المزيد فيه.. فما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، وما من جمال إلا وعند الله أجمل منه، وما من قرب إلا وعند الله أقرب منه، وما من ارتقاء إلا وعند الله أعلى منه، وما من علم إلا وعند الله أوسع منه.. فاحرصوا على ما أنتم في الله، واحرصوا على طلبكم لما أدركتم من نعمة الله، ومن رحمة الله، ومن الوعي عن الله، واجعلوا حديثكم عن الله وعملكم لمرضاته.

هدانا الله وإياكم سواء السبيل، وجمع قلوبنا في ساحة رحمته، وأنزل السكينة عليها بجوده وكرمه، وأخرجها من الظلمات إلى النور بفضله وعطائه.. لا إله غيره ولا معبود سواه.

اللهم كن لنا في الكبير والصغير من شأننا.. اللهم تولَنا فيما نعلم، وفيما لا نعلم، وولِ اللهم أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا.. وذكرنا حكاما ومحكومين.. وخذ بنواصينا إلى الخير حكاما ومحكومين.. وتولنا برحمتك حكاما ومحكومين.. اللهم اغفر لغافلنا واقبل من عاملنا.. وألف بين قلوبنا ووحد جمعنا....

لا إله غيرك إليـــك المصير.

أضواء على الطريق

- {وأذن في الناس بالحج يأتوك....}[٤]
- {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت}[٥].
- {وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها}[٦].
- {النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم}[٧].
- {في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه.. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله}[٨].
- {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا}[٩].

مصادر التوثيق والتحقيق

١ من الحديث الشريف: "فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بِستّ: أَعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وأَحِلَّتْ لِيَ الغَنائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِدًا وطَهورًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كَافَّةً، وخُتِمَ بي النبيُّونَ). سنن الترمذي، ومسلم باختلاف يسير. كما أخرج البخاري بعضا منه في أحاديث أخرى.

٢ من حديث شريف: "إنَّ اللهَ زوَى لي الأرضَ فرأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها فإنَّ أُمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زوَى لي منها وأُعطِيتُ الكَنزَيْنِ : الأحمرَ والأبيضَ... أخرجه مسلم في صحيحه.

٣ حديث شريف: " تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة." المحدث: الزرقاني. المصدر: مختصر المقاصد. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

٤ سورة الحج - ٢٧

٥ سورة الأحزاب - ٣٣

٦ سورة طه - ١٣٢

٧ سورة الأحزاب - ٦

٨ سورة النور - ٣٦:٣٧

٩ سورة آل عمران - ٩٦